المبحث الثاني: معالم الحكمة في أساليب الدعوة وأخلاق الدعاة

المطلب الأول:

من معالم الحكمة في الدعوة

وبعد هذه التقدمة التي أظنكم استشعرتم من خلالها بعض معالم تشير إلى مواطن الحكمة ومسالكها عن طريق معرفة حقيقة الحكمة وأبرز الصفات في رجل الدعوة أحب أن أبسط بعض البسط في معالم أراها حقيقة بذلك:

وسوف يكون هذا البسط من خلال التعرف على طبائع النفوس، وطبقات المدعوين، وتخير الأوقات، وانتهاز المناسبات ثم النظر في طرائق الدعوة وأساليبها من إحسان في القول، والحرص على التلميح إذا أمكن الاستغناء به عن التصريح، والقصد إلى الستر والنصيحة، والبعد قدر الإمكان عن التشهير الذي قد ينقلب إلى فضيحة مع سلوك المداراة المشروعة، وإقالة العثرات ما أمكن، وإليك أخي الفاضل بسطا لبعض هذه المعالم:

* **المعلم الأول**: طبائع النفوس وطبقات المدعوين: الناس متباينون في طبائعهم، مختلفون في مدركاتهم، في العلم والذكاء، في الأمزجة والمشاعر، مختلفون في الميول والاتجاهات مما يدعو رجل العلم والدعوة إلى تخير المدخل بل المداخل المناسبة لتلك النفوس المختلفة والعقول المتباينة

نعم، إن فيهم الغضوب والهادئ، وفيهم المثقف والأمي، وفيهم الوجيه وغير الوجيه

بل إن ثمة كلمة لعلي - رضي الله عنه - يصف فيها القلوب، كل القلوب بأنها وحشية فهو يقول: (القلوب وحشية فمن تألفها أقبلت عليه)

إنه يصورها رضي الله عنه وكأنها دواب متوحشة لا تعرف الألفة في طبعها ويبدو هذا والله أعلم في ميدان النصائح والتوجيهات فهل رأيت من يرضى أن تنسبه إلى جهل أو عدم معرفة أو سوء في التصرف إن الإنسان يعظم عليه أن ينسب إلى الجهل، ولذا تراه يغضب إذا نبه على الخطأ، ويجتهد في مجاهدة الحق بعد معرفته خيفة انكشاف جهله

إنها في هذا الباب تنفر إذا قرب منها، بل لعلها بدافع الدفاع عن النفس تهجم وتؤذي، ومن كان صاحب حكمة وفطنة في ترويض الوحوش فهو المفلح بتوفيق الله في هداية الناس

وصاحب الترويض الناجح هو الذي يحرص على تلمس الجانب الطيب في نفوس الناس، وتقصد إلى شيء من العطف على أخطائهم وحماقاتهم شيء من العناية - غير المتصنعة - باهتماماتهم وهمومهم وسوف يصل إلى مصدر النبع الخير في نفوسهم، وحينئذ يمنحونه حبهم وثقتهم

إن شيئا من سعة الصدر، والإحاطة بطبائع النفوس كفيل بتحقيق الخير في الناس بنتيجة لا يظنها الكثيرون، ينبني على ذلك ملاحظة استيعاب المدعو وسعة مداركه، فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله فيوقعه إما في النفرة والشرود، وإما في التخبط الفكري والدخول في غياهب الفتن

وفي ذلك يقول ابن مسعود - رضي الله عنه: (ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة) ويقول علي - رضي الله عنه -: (حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب الله ورسوله)

* **المعلم الثاني**: تخير الأوقات وانتهاز المناسبات:

هذا معلم كبير ومؤثر من معالم الحكمة وتلمسها، يبلور ذلك كلمة جامعة لعبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -: (إن للقلوب شهوةً وإقبالاً وفترةً وإدباراً، فخذوها عند شهوتها وإقبالها، وذروها عند فترتها وإدبارها) وقد كان - رضي الله عنه - يذكرهم كل خميس، فقال رجل: لوددت أنك ذكرتنا كل يوم، فقال: (أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملكم، وإني أتخولكم بالموعظة كما كان رسول الله ﷺ يتخولنا مخافة السآمة علينا) [1]

ولأمر ما، كان نزول كتاب ربنا منجما ومفرقا على المناسبات والأحداث والأزمنة والأمكنة

وأنت خبير أن إقبال الناس في رمضان يختلف عنه غيره، وقل مثل ذلك في المناسبات المختلفة، والأحداث المتجددة من وقائع الأفراح أو حلول المصائب، فأخذ الناس بهذا ومراعاة تقلبات الدهر من حولهم يدرك به سراً عظيماً في التأثير والاستجابة

وإن شئت مزيداً في هذا فانظر في الأوقات والأحوال التي يتأكد فيها استحباب الدعاء كأوقات السحر، ونزول الغيث، والتقاء الجيوش

وإن رغبت في واقعة فانظر في حكمة يوسف عليه السلام حين استغل الفرصة مع الفتيين عند تعبير رؤياهما وظروف سجنهما فدعاهما إلى الله الواحد الأحد

(١) سنن الترمذي ما جاء في الفصاحة والبيان/ ٢٧٨٢.

{يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ}(١)

يلتحق بذلك مراعاة الأعراف والتقاليد المرعية والطبائع في الحرف والصناعات وقد يكون فيما أشار إليه أهل العلم رحمهم الله من تنوع معجزات أنبياء الله ومناسباتها مع ما يسود البيئات من علوم ومعارف كعصا موسى عليه السلام في بيئات السحرة، وإبراء عيسى عليه السلام في بيئات الطب، وكتاب محمد ﷺ في بلاغة العرب ما يشير إلى ما قصدناه

* **المعلم الثالث**: مراعاة التدرج وترتيب الأولويات:

ما قيل في طبقات المدعوين، وطبائع النفوس، وملاحظة المناسبات يقابله نظر آخر في المدعو إليه فلا شك أن الحكمة تقتضي النظر في متدرجات أمور الدعوة، لأخذ الناس بالأول فالأول فقضايا العقيدة وأصول الملة والديانة تأتي في المقام الأول فهي إن لم تصح في العبد، فلن يجدي فيه الصنيع الحسن والعمل الطيب:**{قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا}**(٢)

ففي الدعوة كليات وجزئيات، وواجبات ومستحبات ومحرمات ومكروهات، وقضايا كبرى وصغرى كل يجب أن تعرف مواقعها وتوضع في مواضعها

وأظن الأمر أوضح من أن يبسط القول فيه، وخذوا دليلا: منهاج مندوب الدعوة ومبعوثها إلى اليمن معاذ بن جبل رضي الله عنه وقد رسم له الرسول ﷺ هذا المنهج حين قال له: **«إنك تأتي قوما من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فإن هم أطاعوا لك بذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم»** (٣)

* * * * *

(١) سورة يوسف: ٣٩، ٤٠.
(٢) سورة الكهف: ١٠٣ - ١٠٥.
(٣) صحيح البخاري بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع/المغازي (٤٠٠٠).

المطلب الثاني:
معالم الحكمة في أساليب الدعوة

يقصد بالأساليب هنا: ما يتعاطاه رجل الدعوة من طرق وصيغ يتوصل من خلالها إلى إبلاغ الحق إلى الناس، وتبصيرهم بما ينفعهم ودفع ما يضرهم

وهذه الأساليب في جملتها قولية كلامية، أو تعامل مباشر مع المدعوين في ترفق ولين، وغض عن الهفوات، وسلوك نهجي الترغيب والترهيب، والشدة واللين

وهذا شيء من بسط لهذه الأساليب:

*** المعلم الأول: القول الحسن:**

إذا أحكم صاحب الدعوة قوله وسدد لفظه فقد أوتي من الحكمة باباً عظيماً يقول الله عز وجل:**{وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا}**(١)

ويقول طلحة بن عمر: قلت لعطاء: إنك رجل يجتمع عندك ناس ذوو أهواء مختلفة وأنا رجل في حدة فأقول لهم بعض القول الغليظ؟ فقال: لا تفعل يقول الله تعالى:**{وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا}** يقول عطاء: فدخل في هذه الآية اليهود والنصارى فكيف بالحنيفي**!!**

وأورد القرطبي في تفسيره على هذه الآية حديثاً عن عائشة - رضي الله عنها - عن النبي ﷺ أنه قال: **«يا عائشة لا تكوني فحاشة فإن الفحش لو كان رجلا لكان رجل سوء»** (٢)

ويعلق القرطبي رحمه الله فيقول: وهذا حض على مكارم الأخلاق فينبغي للإنسان أن يكون قوله للناس لينا، ووجهه منبسطا طلقا مع البر والفاجر، والقريب والغريب من غير مداهنة ومن غير أن يتكلم معه بكلام يظن أنه يرضي مذهبه إلخ (٣)

والقول يكون حسنا وحكمة بقدر ما يعتني بأصول الكلام، ويبتعد عن فضوله يتحرك بنبضات القلب الحي، وهواجس النفس الصادقة

ويحسن الكلام حين يكون قصداً عدلاً ليس بالإيجاز المخل ولا الطويل الممل، وقد كانت خطبه عليه الصلاة والسلام قصداً كما في الحديث الصحيح عند مسلم من رواية

(١) البقرة: ٨٣.
(٢) القرطبي ٢ / ١٦.
(٣) القرطبي ٢ / ١٦.

جابر بن سمرة رضي الله عنه وتأملوا في هذا الحوار الهادئ، والقول الحسن في الجدال الحسن: فهذا حصين الخزاعي والد عمران كانت قريش تعظمه وتجله فطلبت منه أن يكلم محمداً ﷺ في آلهتها فقد كان محمد يذكرها ويسبها

فجاء حصين ومعه قريش حتى جلسوا قريبا من باب النبي ﷺ ودخل حصين فلما رآه النبي ﷺ قال: **«أوسعوا للشيخ»**، فقال حصين: ما هذا الذي بلغنا عنك؟ أنك تشتم آلهتنا فقال: **«يا حصين كم تعبد من آلهة؟»** قال سبعا في الأرض، وواحدا في السماء فقال: **«فإذا أصابك الضر فمن تدعو؟»** قال: الذي في السماء قال: **«فإذا هلك المال من تدعو؟»** قال: الذي في السماء قال: **«يستجيب لك وحده وتشرك معه؟ يا حصين أسلم تسلم»**، فأسلم فقام إليه ولده عمران فقبل رأسه ويديه ورجليه فلما أراد حصين الخروج قال رسول الله ﷺ : **«شيعوه إلى منزله»** (١)

عجبا! دخل كافرا ناقما منتقما فخرج مسلما صادقا ليت شعري كيف كان حال قريش مع صاحبها ووجيهها!!

ويدخل في ذلك: القول اللين الذي يستثير النوازع البشرية ووشائج القربى، وعبارات الحنو والشفقة، فإبراهيم عليه السلام ينادي أباه بكلمات شفوقة

{يَاأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَاأَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَاأَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَاإِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا * قَالَ سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا}(٢)

وكل نبي يقول لقومه: يا قوم تذكيرا بأواصر القربى ومواطن الحب والشفقة

ومحمد ﷺ يقول لقومه في كلمة رقيقة في دعوة رفيقة: **«إن الرائد لا يكذب أهله والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ولو غششت الناس جميعا ما غششتكم»**(٣)

*** المعلم الثاني: التصريح والتعريض**

(١) أهل العلم مختلفون في إسلام حصين، والأرجح القول بإسلامه كما ذكر الحافظ ابن حجر وغيره.
(٢) سورة مريم: ٤٣، ٤٧.
(٣) مسند أحمد/ ١٢٢٣٥.

ومن القول الحسن: الجنوح إلى التعريض والتلميح دون التصريح

فالتصريح يهتك حجاب الهيبة، ويورث الجرأة على الهجوم، والتبجح بالمخالفة، ويهيج على الإصرار والعناد

أما التعريض فيستميل النفوس الفاضلة، والأذهان الذكية، والبصائر اللماحة

قيل لإبراهيم بن أدهم: الرجل يرى من الرجل الشيء أو يبلغه عنه، أيقوله لـه؟ قال: هذا تبكيت، ولكن تعرض

وكل ذلك من أجل رفع الحرج عن النفوس، واستثارة داعي الخير فيها كيف و التعريض سنة محفوظة عن النبي ﷺ في مخاطبة أصحابه: **«ما بال أقوام قالوا كذا وكذا»** [1]

*** المعلم الثالث: النصيحة لا الفضيحة**

أردت تخصيص النصيحة بالذكر هنا وإن كانت داخلة في كل ما سبق بل النصيحة مقصود أعظم في الدعوة إن لم تكن هي الدعوة كلها

ولكن المراد هنا: الإشارة إلى آداب النصيحة كمظهر من مظاهر الحكمة في الدعوة، وبخاصة إذا ما حاولنا البعد بالنصيحة عن أن تكون تشهيرا وفضيحة ويوضح ذلك الحافظ ابن القيم - رحمه الله - حين يقول: (والنصيحة إحسان إلى من تنصحه بصورة الرحمة والشفقة عليه والغيرة لـه، وعليه فهو إحسان محض يصدر عن رحمة ورقة، مراد الناصح بها وجه الله ورضاه والإحسان إلى خلقه)

فهي دعوة إصلاح يجب أن يتمخض فيها الإخلاص لله، مع المحافظة على مشاعر المنصوح على نحو ما سبق في المعالم السابقة لئلا ينقلب النصح مخاصمةً وجدالاً وشراً ونزاعاً

يؤكد جانب الدقة في هذا الأمر أن ذكر الإنسان بما يذكره هو على أصل التحريم وقد قيل لبعض السلف: (أتحب أن يخبرك أحدٌ بعيوبك؟ فقال: إن كان يريد أن يوبخني فلا)

ولا يكاد يفرق بين النصيحة والتعيير إلا النية والباعث والحرص على الستر، وقد نهى النبي ﷺ السيد أن يثرب أمته - أي يلومها على ذنبها - فقال عليه الصلاة والسلام: **«إذا زنت الأمة فتبين زناها فليجلدها ولا يثرب»** [2]

(١) مسند أحمد/١٣٠٤٥.
(٢) صحيح البخارى/ ٦٣٣٤ كتاب الحدود.

يقول الفضيل: (المؤمن يستر وينصح، والفاجر يهتك ويعير) وكانوا يقولون: (من أمر أخاه على رؤوس الملأ فقد عيره)

ذلك أن الناصح الصادق ليس لـه غرض في إشاعة عيوب من ينصح لـه، وإنما غرضه إزالة المفسدة، وإخراج أخيه من غوائلها

وشتان بين من قصده النصيحة، ومن قصده الفضيحة، ولا تلتبس إحداهما بالأخرى

وكما قالت أم الدرداء: (**من وعظ أخاه سرا فقد زانه، ومن وعظه علانية فقد شانه**)[1]

*** المعلم الرابع: أدب التعامل**

كان الكلام فيما سبق تنبيها على مواطن الحكمة في القول والمخاطبة وحسن المجادلة

وفي هذه الفقرات إشارات إلى بعض ما ينبغي من أدب التعامل مع المدعوين، وبخاصة حينما يرى عليهم ما يستحق التنبيه، ويستوجب الملاحظة والتغيير

وسوف ينتظم هذا الحديث صورا من اللين في التعامل، ثم المداراة وإقالة العثرات، ومواطن الترغيب والترهيب

*** صورة من اللين في التعامل:**

النفوس مجبولة على حب من يحسن إليها ويتلقاها باللين ويبسط لها في المحيا

والشدة قد تدفع إلى المكابرة والنفور والإصرار، فتأخذ النفس العزة بالإثم على نحو ما سبق بسطه، فالتعامل المؤثر ما كان دمثا يفتح القلوب ويشرح الصدور فمحمد ﷺ وأصحابه والمؤمنون رحماء بينهم

يروى معاوية بن الحكم السلمي - رضي الله عنه - قال: صليت مع رسول الله ﷺ فعطس رجل من القوم فقلت: يرحمك الله فرماني القوم بأبصارهم فقلت واثكل أماه، ما شأنكم تنظرون؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فعرفت أنهم يصمتونني فلما رأيتهم يسكتونني لكني سكت قال: فلما صلى رسول الله ﷺ بأبي وأمي ما ضربني ولا سبني

وفي رواية: فما رأيت معلما قط أرفق من رسول الله ﷺ؛ قال: «**إن هذه الصلاة لا**

(١) مفهوم الحكمة فى الدعوة/المكتبة الشاملة / ٣١.

يحل فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن»[1]

وفي مدلولها قصة الأعرابي الذي بال في طائفة المسجد فقام الصحابة لينهروه فنهاهم النبي ﷺ عن ذلك، فلما فرغ دعاه عليه الصلاة والسلام قائلا له: **«إن المساجد لا تصلح لهذا إنما هي لذكر الله والصلاة»** فولى الأعرابي وهو يقول: اللهم ارحمني ومحمدا ولا ترحم معنا أحدا فقال له النبي ﷺ وهو يضحك: **«لقد حجرت واسعا»** [2]

قال الحافظ معلقا على أمثال هذه الوقائع: والمراد من قرب إسلامه وترك التشديد عليه في الابتداء، وكذلك الزجر عن المعاصي ينبغي أن يكون بتلطف ليقبل، وكذا تعليم العلم ينبغي أن يكون بالتدريج، لأن الشيء إذا كان في ابتدائه سهلا حبب إلى من يدخل فيه وتلقاه بانبساط، وكانت عاقبته غالبا الازدياد بخلاف ضده، والله أعلم

وفي هذا يقول الإمام أحمد: (كان أصحاب ابن مسعود إذا مروا بقوم يرون منهم ما يكرهون يقولون: مهلا رحمكم الله)

ودعي الحسن البصري - رحمه الله - إلى عرس فجيء بجام من فضة (أي قدح أو إناء) عليه خبيص أو طعام (والخبيص طعام من التمر والسمن) فتناوله فقلبه على رغيف فأصاب منه فقال رجل: هذا نهي في سكون

ويروى أن الخليفة المأمون وعظه واعظ فأغلظ له في القول فقال: يا رجل ارفق فقد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر مني وأمره بالرفق فقال تعالى:**{اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولاَ له قَوْلاً لَّيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى}**[3]

*** المعلم الخامس: المداراة**

المداراة صورة من صور التعامل الدال على الحكمة، والموصل إلى المقصود مع حفظ ما للداعي والمدعو من كرامة ومروءة

وقد بوب الإمام البخاري - رحمه الله - في صحيحه فقال: المداراة مع الناس، ثم أورد حديث عائشة رضي الله عنها أنه استأذن على النبي ﷺ رجل فقال: **«ائذنوا له**

(١) مسند أحمد / ٢٢٦٤٤.
(٢) مسند أحمد / ٦٩٥٧.
(٣) سورة طه: ٤٣ / ٤٤.

فبئس ابن العشيرة، أو بئس أخو العشيرة» فلما دخل ألان لـه الكلام تقول عائشة: فقلت يا رسول الله: قلت ما قلت ثم ألنت لـه القول؟ فقال: **«أي عائشة، إن شر الناس منزلة عند الله من تركه أو ودعه الناس اتقاء فحشه»** (١)

قال ابن بطال: المداراة من أخلاق المؤمنين، وهي خفض الجناح للناس ولين الكلام وترك الإغلاظ، وذلك من أقوى أسباب الألفة قال: وظن بعضهم أن المداراة هي المداهنة فغلط، لأن المداراة مندوب إليها والمداهنة محرمة، والفرق: أن المداهنة من الدهان: وهو الذي يظهر على الشيء ويستر باطنه وفسرها العلماء بأنها معاشرة الفاسق وإظهار الرضى بما هو فيه من كبر إنكار عليه

والمداراة: هي الرفق بالجاهل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن فعله، وترك الإغلاظ عليه حيث لا يظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل، ولا سيما إذا احتيج إلى تألفه ونحو ذلك اهـ

إذا تقرر هذا المعنى فهو الذي قد عناه الحسن البصري - رحمه الله - بقولـه: كانوا يقولون: المداراة نصف العقل، وأنا أقول هي كل العقل

ومن الطريف قول أبي يوسف - رحمه الله - في تعداد من تجب مداراتهم فعد منهم: القاضي المتأول والمريض والمرأة والعالم ليقتبس من علمه وأكثر ما تجري المداراة في اتقاء الأشرار والمكاره

وقد جاء في حكم لقمان: يا بني كذب من قال: إن الشر بالشر يطفأ، فإن كان صادقا فليوقد نارين ولينظر هل تطفئ إحداهما الأخرى، وإنما يطفئ الخير الشر كما يطفئ الماء النار

وسلوك المداراة مأذون فيه لأن الإنسان خلق للاجتماع لا للعزلة، وللتعارف لا للتناكر، وللتعاون لا للانفرادية والإنسان تعرض لـه عوارض نفسية وطبيعية من الحب والبغض والرضى والغضب والاستحسان والاستهجان، فلو سار على أن يكاشف الناس بكل ما يعرض لـه من هذه الشؤون في كل وقت وعلى أي حال لاختل الاجتماع ولم يثبت التعارف ولانقبضت الأيدي عن التعاون، فكان من حكمة الله في خلقه أن هيأ الإنسان لأدب يتحامى

(١) صحيح البخاري المداراة مع الناس/ ٥٦٦٦.

به عما يحدث تقاطعا أو يدعو إلى تخاذل، وهذه هي المداراة التي نعني

إذن فالمداراة ترجع إلى حسن اللقاء ولين الكلام، وتجنب ما يشعر ببغض أو غضب أو استنكار إلا في أحوال يكون الإشعار به خيرا من الكتمان وأرجح وأصلح

ومن لطيف المنقول في سير المتقدمين المقتدى بهم ما جاء في وصية سحنون لابنه محمد: (وسلم على عدوك وداره فإن رأس الإيمان بالله مداراة الناس) ويقول محمد بن أبي الفضل الهاشمي قلت لأبي: لم تجلس إلى فلان وقد عرفت عداوته؟ قال: أخبى نارا وأقدح وداً

فالنفوس المطبوعة على المداراة نفوس أدركت أن الناس خلقوا ليكونوا في الائتلاف كجسد واحد وشأن الأعضاء السليمة أن تكون ملتئمة متماسكة على قدر ما فيها من حياة، ولا يقطع العضو المركب في الجسد إلا أن يصاب بعلة يعجز الطب عن علاجه إلا بالبتر

فالمداراة يقصد بها جمع الناس على الرضا والتآلف في حدود ما ينبغي أن يكون وهي لا تمنع قضاء بالعدل ولا تحجب نصيحة بالرفق، وينبغي أن يعلم أن لذكاء الرجل وحكمته مدخلا عريضا في فقه المداراة وحسن استخدامها وطريقة الإفادة منها

وقد يكون للتنوع في طبقات الناس تنوع في مداراتهم، فمداراة المنحرف عن الحق لسوء فهم أو خطأ في ظن، أكبر من مداراة من يحارب الحق والفضيلة إن صادفك واقتضى الحال مداراته

ومداراة من يرجى رشده وصلاحه أكبر من مداراة من شب متماديا في الانحراف ولؤم الطبع حتى يوشك أن ينقطع أملك في إصلاحه واستقامة أمره

ومن كل ذلك تعرف أن المداراة مسلك كريم يتقنه الحكماء والأذكياء ولا يتعدى حدوده الفضلاء

إذا رغبت في كلمة عن المداهنة لتميزها عن المداراة فلتعلم أن المداهنة إظهار الرضا عن الغلط من الظلم والفسق ومن قول باطل أو عمل ممنوع

والمداهنة مسلك ذميم ينطوي تحت جناحيه الكذب، وخلف الوعد

أما الكذب فلأن المداهن يصف الرجل بغير ما يعرفه عنه، ومن دخل الكذب من باب، سهل عليه أن يأتيه من أبواب متفرقة وأما إخلاف الوعد فلأن المداهن يقصد إلى إرضاء صاحبه في الحال فلا يبالي أن يعده بشيء وهو عازم على أن لا يصدق في وعده

المداهنون يجعلون ألسنتهم طوع بغية الوجيه، ويعجلون إلى قول ما يشتهي إن يقولوه

قال الماوردي - رحمه الله: إن الإنسان وإن كان مأمورا بتآلف الأعداء، ومندوبا إلى مقاربتهم، فإنه لا ينبغي أن يكون لهم راكنا وبهم واثقا بل يكون منهم على حذر، ومن مكرهم على تحرز، فإن العداوة إذا استحكمت في الطباع صارت طبعا لا يستحيل، وجبلة لا تزول وإنما يستكفى بالتألف إظهارها، ويستدفع به أضرارها كالنار يستدفع بالماء إحراقها، ويستفاد به إنضاجها، وإن كانت محرقة بطبع لا يزول وجوهر لا يتغير وقد قال الشاعر:

وإذا عجزت عن العدو فداره ::: وامزح له إن المزاح وفاق
فالنار بالماء الذي هو ضدها ::: تعطي النضاج وطبعها الإحراق

ومن كل ما تقدم يتبين واجب المصلحين من الدعاة والعلماء والمربين في هذا الباب فواجب العناية بمحاربة المداهنة حتى تنفى من الأرض وتكون الأوطان ودور التربية منابت نشء يميزون المداهنة من المداراة، فيخاطبون الناس في رقة وأدب وشجاعة، ويحترمون من لا يلوث أسماعهم بالملق الكاذب، ولا يكتمهم الحقائق متى اتسع المقام لحديث المصارحة [1]

*** المعلم السادس: إقالة العثرات والغض عن الأخطاء**

وأسلوب المداراة المتقرر في الفقرة السابقة يقود إلى غض الطرف عن أخطاء المقصرين ما دام طريقا لاستصلاحهم، وإقالة عثرات العاثرين إذا كانوا كراما ذوي هيئات أو كان ذلك سبيلا إلى دفنها وتقليلها

وإن شئتم برهانا قريبا فاستذكروا قصة حاطب بن أبي بلتعة تلك الواقعة الصحيحة فهي صورة حية من صور الضعف البشري في لحظة من لحظات الزمن مع أنه الصحابي البدري، ولكبر الزلة قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه: دعني أضرب عنق هذا المنافق، ولكن النبي ﷺ حين سأل حاطبا وأجابه فقال عليه الصلاة والسلام: **«لقد صدق ولا تقولوا إلا خيرا أما علمت يا عمر أن الله قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»** [2]

(١) مفهوم الحكمة فى الدعوة/المكتبة الشاملة/٤١.
(٢) مسند أحمد/ ١٤٢٤٧.

إن إقالة العثرة ليست إقرارا للباطل ولكنها إنقاذ للواقع فيه

حكي أن أخوين من السلف انقلب أحدهما عن الاستقامة فقيل لأخيه: ألا تقطعه وتهجره؟ فقال: أحوج ما كان إلي في هذا الوقت لما وقع في عثرته أن آخذ بيده وأتلطف له في المعاتبة وأدعو له بالعودة إلى ما كان عليه

حق لمن غلط أو ذل أن يسمع كلمة حانية، وأن يستضيء بشمعة أمل من أجل أن يرجع إلى الجادة، ويسير مع الأخيار من الصحاب

يمر أبو الدرداء - رضي الله عنه - على رجل قد أصاب ذنبا، والناس يسبونه، فأنكر عليهم صنيعهم فقال لهم: أرأيتم لو وجدتموه في قليب، ألم تكونوا مستخرجيه؟ قالوا: بلى قال: فلا تسبوا أخاكم واحمدوا الله الذي عافاكم، قالوا: أفلا تبغضه؟ قال إنما أبغض عمله فإذا تركه فهو أخي

*** المعلم السابع: الترغيب والترهيب ومواقف الشدة**

كل ما تقدم من التأكيد على مسالك اللين والرفق والمداراة، والغض عن الهفوات، وإقالة العثرات، ليس معارضا لما هو معروف ومتقرر في مسالك الشرع من ضرورة سير الدعاة والمربين بين حالي الرغبة والرهبة، والرخاء والشدة لكن المقدم في التعامل هو الترغيب والرفق كما قال الإمام أحمد: (والناس يحتاجون إلى مداراة ورفق بلا غلظة، إلا رجلا مباينا معلنا بالفسق والردى، فيجب نهيه لأنه يقال ليس لفاسق حرمة، فالمعلن المصر لا حرمة له)

وطريق أنبياء الله - عليهم السلام - المذكورين في القرآن مسلوك فيه النجدين:**{إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ}** إلى قوله:**{وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى}**(١)

وقال عن محمد ﷺ:**{فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} {وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}** (٢)

(١) سورة نوح: ١ - ٤.
(٢) سورة التغابن: ٨ - ١٠.

ترغيب فيما وعد الله من حسن الجزاء في الدنيا، وحسن العافية في الآخرة:**{وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}**(١)

وترهيب من وعيد الله وغيرته على حرماته، والخوف من أليم عقابه عاجلا وآجلا:**{وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ}**(٢)

وبعد: فلعله بملاحظة هذه المعالم وأمثالها يتحقق الخير وترشد المسالك وتؤتي الحكمة خيرهاوالنفوس تملك قدراً كبيراً من التأهيل في قبول ما عند الدعاة، وهي تحب سماع كلام الله وكلام رسول الله ﷺ وتستفيد من المواعظ، وهي قريبة من الخير مستعدة له فليفقه هذه السنن الدعاة إلى الله، وليحملوا الناس على توجيهات الشرع لا على جلبة الشارع وغوغاء العامة، وليتجنبوا المزالق والمنعطفات الخطيرة التي يتعمد أعداء الملة من الكفار والمنافقين وضعها في الطريق

* * * * *

(١) سورة الصف: ١٣.
(٢) سورة هود: ١٠٢.

المطلب الثالث:
أخلاق الدعاة

كان من صحيح دعائه ﷺ: **«اللهم اهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت»** (١)

«اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء» (٢)

«اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي»(٣)

«اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل، والهرم والقسوة، والغفلة والعيلة، والذلة والمسكنة، وأعوذ بك من الفقر والكفر، والفسق والشقاق والنفاق، والسمعة والرياء، وأعوذ بك من الصمم والبكم، والجنون والجذام، والبرص وسيئ الأسقام» (٤)

١- لأتمم مكارم الأخلاق: تتبوأ الأخلاق في الإسلام موقعا من أعظم المواقع، حتى لقد صح عنه ﷺ، أنه قال: **«إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»**

وفي لفظ: **«مكارم الأخلاق»**(٥)

فكأنه ﷺ حصر المهمة التي بعث لها في هذا الأمر ولا غرابة! فإن نحن فهمنا "الأخلاق " على أنها تعامل العبد مع الله ومع الناس، فالأمر واضح، وهذا هو الدين كله، كيف تتعامل مع الخالق؟ كيف تعبده وتوحده وتتجنب ما يسخطه؟ وكيف تتعامل مع المخلوق؟ ويدخل في ذلك الملائكة والأنبياء والصالحون والأقربون ممن لهم حقوق الحب والود، كما يدخل فيه الصنف الآخر من الشياطين والكفار والفساق والمنافقين ممن يبغضهم الإنسان في ذات الله كالكفار، أو يبغضهم من جانب واحد كالفساق الذين يكون فيهم أصل الإيمان

(١) مسلم: ١ / ٥٣٥.
(٢) الترمذي: ٥ / ٥٣٦.
(٣) أحمد: ١ / ٤٠٣، ٦ / ٦٨، ١٥٥.
(٤) المستدرك: ١ / ٥٣٠، ٥٣١.
(٥) رواه أحمد: (٢ / ٣٨١)، ومالك بلاغا (٢ / ٩٠٤)، والبزار كما في المجمع (٩ / ١٥)، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح. وقال ابن عبد البر: هو حديث مدني صحيح متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره.

بالله ورسله أما إن فهمنا " الأخلاق " بمعنى أخص، وأنها التعامل مع الناس فحسب، فالحديث إذن محمول على بيان عظم فضل الأخلاق، وعلو مكانتها في الدين، فهو كحديث: **«الحج عرفة»**[(١)]، وحديث: **«الدين النصيحة»**[(٢)]

إذ ليس المقصود حصر الحج في عرفة، ولا حصر الدين كله في النصيحة إنما المقصود أن الوقوف بعرفة أعظم أركان الحج، وأن للنصيحة مرتبة عالية في الدين فلا إشكال في الحديث على المعنيين، وكلاهما له دلالة قوية على عظم شأن الخلق في الإسلام

٢- مسلم وداعية: من هذا المنطلق وجب على المسلم التحلي والتجمل بالخلق الحسن، سواء كان داعية أم غير داعية، إذ الأخلاق من مقاصد البعثة المحمدية التي أكرم الله بها الإنسان في الأرض كلها، وخص المؤمنين بخصيصة منها ليست لسواهم، حيث هداهم بها إلى الصراط المستقيم، وزكى نفوسهم، وعلّمهم ما لم يكونوا يعلمون:**{هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ}**[(٣)]

والتزكية المذكورة في الآية الكريمة تشمل تزكية النفس وتربيتها على معالي الأخلاق، وتنقيتها من رديئها ففي الآية هذه كما في الحديث السابق تبدو الأخلاق مقصدا من مقاصد البعثة المحمدية، بل من أبرز مقاصدها وإذا كان التحلي بالخلق الفاضل واجبا على آحاد المسلمين فما بالك بالداعية الذي يحمل راية الدعوة وشعارها وينادي بها بين الناس؟

إن الأنظار إليه أسرع، والخطأ منه أوقع، والنقد عليه أشد، ودعوته يجب أن تكون بحاله قبل مقاله ولذلك فتخلقه بالخلق الكريم أوجب وألزم، قياما بحق ما جعل الله على كاهله من الأعباء الجسام كما قال الشاعر:

شكراً لفضلك إذ حملت كاهلنا ::: مما وثقت بنا ما كان من نوب!

وحماية للدعوة وأهلها من ألسنة المغرضين، وأقلام الخصوم الشانئين، وأوهام الغفل والمتعجلين!

* * * * *

(١) رواه الترمذي (٨٩٩)، وأبو داود (١٩٤٩)، والنسائي (٣٠٤٤)، وابن ماجه (٣٠١٥)، والدارمي وغيره.. جميعهم عن عبد الرحمن بن يعمر الديلي.
(٢) رواه مسلم (٥٥)، وأبو داود (٤٩٤٤)، والنسائي (٤١٩٧، ٤١٩٨) من حديث تميم.
(٣) سورة الجمعة: ٢.

المطلب الرابع:
فضائل لابد للداعية التحلى بها

أ – الصدق في حمل الدين:

بأن يكون تدين المرء تدينا صحيحاً مبنيًّا على الصدق مع الله عز وجل، لا على النفاق والكذب والمجاملة، ولذلك يطلق الصدق في القرآن الكريم في مقابل النفاق:**{لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ}**(١)

فلا بد من الإسلام الظاهر مع الإيمان الباطن، لا بد من حسن الاعتقاد بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين

فالهدي الظاهر لا بد أن يكون متوافقا مع الهدي الباطن

وهنا كمين من كمائن الشيطان يوحي للداعية بترك بعض الأعمال الصالحة الظاهرة بحجة أن باطنه ليس كذلك فلا تفعل لئلا ينخدع الناس بك!

وهذا خطأ كبير

بل العمل الصالح الذي تزاوله بجوارحك هو من أسباب صلاح قلبك وصدقه، ما دمت لم تعمله رياء ولا سمعة ولا على سبيل خداع المؤمنين

ب – الصدق في الأقوال:

والصدق في القول تعبير عن شخصية واضحة، ومروءة وشهامة وكرم، ولا يلجأ للكذب إلا لئيم الطبع، خبيث النفس، ضعيف الشخصية، والفطرة السليمة تستعيب الكذب وتستقبحه، ولذلك أجمعت الديانات السماوية على تحريمه وتجريمه

فما بالك بالداعية أتراه يتصور صدور الكذب منه؟!

أعتقد - إن شاء الله - أن: لا ولكن:

من الدعاة من يتوسع في " التورية " بأن يقول كلاما يفهمه الناس على خلاف ما يقصد، وقد يكتشفون بعد أن الواقع على خلاف ما فهموا منه فيتهمونه بالكذب ثم إن التوسع في التورية قد يؤدي إلى التسامح في بعض " الكذيبات " بحجة أنها للمصلحة!! فالحذر الحذر!

(١) سورة الأحزاب: ٢٤.

أيها الداعية: حين يلجؤك الموقف إلى الكذب فلا تقدم عليه، وتذكر كلمة " أبي سفيان" أمام هرقل حين سأله عن رسول الله ﷺ، فقال: **«والله لولا أن يؤثروا عني كذبا لكذبت!»**[1]

لقد تجنب هذا الرجل - وكان جاهليًا - أن يكذب خشية أن ينقلوها عنه، أو يعيروه بها يوما من الدهر، مع شدة حاجته إليها

ونحن نعلم أن أعراض الدعاة اليوم أصبحت هدفا لسهام كثيرة، ولذا يتعين على الداعية أن يغلق الباب الذي تأتيه منه الريح، ليريح ويستريح!

جـ – الصدق في الأعمال:

وهو يعني أن تكون أعمال الإنسان خالصة لوجه الله تعالى من الرياء والسمعة، **{فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا}**[2] وقال: **{لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً}**[3]

قال الفضيل بن عياض: أيكم أحسن عملا، أي: أخلصه وأصوبه

قيل: يا أبا علي! ما أخلصه وأصوبه؟

قال: إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، لا يقبل حتى يكون خالصاً صواباً!

ومن الصدق في الأعمال: الوضوح وتجنب الغموض والتلبيس

روى أبو داود والنسائي أن عثمان بن عفان رضي الله عنه جاء بعبد الله بن سعد بن أبي السرح وقد أهدر رسول الله ﷺ دمه، حتى أوقفه على رسول الله ﷺ، فقال: يا نبيّ الله! بايع عبد الله

فرفع رسول الله ﷺ رأسه فنظر إليه مرتين أو ثلاثا، كل ذلك يأبى أن يبايعه، ثم بايعه بعد الثلاث، ثم أقبل رسول الله ﷺ على أصحابه فقال: **«أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حيث رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله؟!»**

(١) صحيح البخارى باب الجهاد والسير/ ٢٧٢٣.
(٢) سورة الكهف: ١١٠.
(٣) سورة الملك: ٢.

فقالوا: ما ندري يا رسول الله ما في نفسك، ألا أومأت إلينا بعينك؟ قال عليه الصلاة والسلام: **«إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين!!»** (١)

إلى هذا الحد كان مدى " الصدق " في أعمال النبي ﷺ، لم يرض أن يقتل عدوه اللدود الذي كان أهدر دمه بطريقة غامضة عن طريق الإيماء بطرف العين!! وكان هذا دأبه وديدنه طيلة حياته ﷺ، ولذلك لم يستطع المشركون في بداية الدعوة أن يتهموه بالكذب، بل قالوا: شاعر ساحر مجنون ولم يصدقهم الناس، وعندما فقدوا صوابهم وأعيتهم الحيل صرخوا: كذاب ولكن هيهات أن يصدقهم الناس!

وروى الترمذي عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة انجفل الناس إليه، وقيل: قدم رسول الله ﷺ، قدم رسول الله ﷺ، قدم رسول الله ﷺ، فجئت في الناس لأنظر إليه، فلما استثبتُّ وجه رسول الله ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، وكان أول شيء تكلم به أن قال: **«أيها الناس! أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»** (٢)

لقد سرى صدق رسول الله ﷺ، من القلب إلى اللسان إلى الجوارح وتجلى على محيا وجهه الكريم فكل من نظر إلى طلعته وإشراقها وصفائها قرأ فيها الصدق وعرف أن وجهه ليس بوجه كذاب!

نحن نحتاج إلى نمط من الدعاة آثروا الصدق في أقوالهم وأفعالهم حتى أصبح الصدق سجية تجري في عروقهم، وتطل من طلعات وجوههم، فإذا رآهم الناس قالوا: هذه ليست بوجوه كذابين!

كما نحن بحاجة إلى دعاة يتجملون بالخلق الكريم، ويتأبون على الإثارة الاستفزاز فيحتفظون بهدوئهم واعتدال منطقهم في سائر الأحوال حتى إذا أبصر الناس منهم هذا هتفوا: هذه أخلاق أنبياء!

إن صدقنا في حمل دعوتنا هو الذي يجعل الناس يتقبلون ديننا، وليس يليق بنا أن

(١) رواه أبو داود ٢٦٨٣، والنسائي ٤٠٦٧، والحاكم ٣ / ٤٥، وله شاهد عند أبي داود ٣٠٩٤ وأحمد (٣ / ١٥١) من حديث أنس ولفظه: « إنه ليس لنبي أن يومض ». وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ١٧٢٣.

(٢) أخرجه أحمد ٥ / ٤٥١، والترمذي (٢٤٨٥)، وابن ماجه (٣٢٥١).

نكون كالممثل على المسرح، يظهر للناس بهيئة خلاف حقيقته، فمثل هذا سرعان ما ينكشف أمره، ويعرض الناس عنه نقل عن بعض السلف أنه كان إذا وعظ أبكى الناس، حتى تختلط الأصوات ويعلو النحيب، وقد يتكلم في المجلس من هو أغزر منه علما، وأجود منه عبارة، فلا تتحرك القلوب ولا يبكي أحد!

فسأله ابنه يوما عن هذا، فقال: يا بني لا تستوي النائحة الثكلى والنائحة المستأجرة!

إذن فالوسيلة الأولى لنجاح الداعية هي: صدقه في حمل دعوته، وجديته في ذلك، وأن يكون الصدق في الأقوال والأعمال منهجه وشعاره ليس المهم هو الكلمات المنمقة المعسولة - وإن كانت مطلوبة - إنما الأهم من ذلك الصدق، وأن يكون منسجما مع نفسه، وأن يكون حديثه عن معاناة، وقديما قيل:

الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الآذان [1]!!

ثانيا: الصبر:

الصبر قرين اليقين{وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ}[2]

ولذلك قال سفيان: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين

والذي لا يصبر فإنه من السهل أن ينخلع عن دينه لأي شيء يعترض طريقه، ومن السهل أن يتخلى عن منهجه وحكمته لأي استفزاز، ولذلك قال الله تعالى لنبيه ﷺ:{فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ}[3]

وقال:{وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً}[4]

كثيرا ما يقف الضالون في وجه الدعاة إلى الله عز وجل، يقولون لهم: إن ما تدعون إليه ضرب من الخيال لا يمكن أن يتحقق في الواقع، أنتم تدعون إلى أمور عفا عليها الزمن، ونسيها الناس أو كادوا، فينبغي أن ترضوا بما دون ذلك، وأن تراجعوا آراءكم واجتهاداتكم!!

(١) سلمان بن فهد العودة/من أخلاق الداعية: ١٣.
(٢) سورة السجدة: ٢٤.
(٣) سورة الروم: ٦٠.
(٤) سورة المزمل: ١٠.

وأمام ضغوط الواقع القائم، وأمام العقبات الحقيقية والوهمية في وجه تحقيق الإسلام، وأمام طول الطريق قد يستجيب بعض الدعاة ويتأثر، ويبدأ في إعادة النظر في فهمه للإسلام، وفيما يقوله الخصوم!

ويا ليته إذ يفعل ذلك يفعله بروح الباحث المتجرد الشجاع المتطلع إلى الحق أين كان إذن لهان الخطب!

لكنه يفعله بروح " المنهزم " الذي يحس بأنه خرج من المعركة أسيرا أو كسيرا فهو يبحث في " عروض " القوم عن " حل " يجنبه المعركة مع الباطل مع الواقع المنحرف وهذا مثل: الربا الذي انتشر، وضرب أطنابه، ومد رواقه، وقامت عليه اقتصاديات العالم كله - بما فيه العالم الإسلامي - وكاد أن يدخل جيب كل أحد حتى تحققت فيه نبوءة النبي ﷺ، حين قال: «يأتي على الناس زمان من لم يأكل الربا أصابه من غباره» (١)

وهذا الحديث وإن كان فيه ضعف، إلا أنه يشهد لصحة معناه قوله ﷺ فيما رواه البخاري: **«يأتي على الناس زمان لا يبالي المرء ما أكل، أمن الحلال أم من الحرام»** (٢)

هذا الحرام المستقر في نفوس الكثيرين وجيوبهم ومؤسساتهم وأموالهم، بدلاً من أن يسعى الداعية لنهي الناس عنه، والبحث عن البدائل الشرعية الصحيحة لتنمية أموال الناس واستثمارها، ولإقامة بناء الاقتصاد الإسلامي السليم يأتيه الذين لا يوقنون فيحاولون أن يستخفّوه ليعيد النظر في صور من صور الربا الصريح وأن لها مخرجا فقهياً ولو ضعيفاً أو شاذاً! وهكذا يصبح " واقع الناس " في فترة من الزمان محدودة مرجعا لتعديل بعض الأحكام الشرعية المستقرة عبر القرون! إنه فقدان الصبر في نفوس بعض الدعاة، ومع فقدانه فقدان الأمل!

أعلل النفس بالآمال أرقبها ::: ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل!

ويا ليت الداعية ينصت لذلك الناصح الذي قال للخليل:

إذا لم تستطع شيئا فدعه ::: وجاوزه إلى ما تستطيع

أنت لست مطالبا بتحقيق نصر واقع للإسلام، فهذا أمره إلى الله متى شاء أن يحدث

(١) أخرجه أحمد ٢ / ٤٩٤، وأبو داود ٣٣٣١، والنسائي ٤٤٥٥، وابن ماجه ٢٢٧٨، وقد أعله المنذري في مختصر السنن ٥ / ٨ بالانقطاع بين الحسن وأبي هريرة.

(٢) رواه البخاري ٢٠٥٩، والنسائي ٤٤٥٤.

حدث، لكنك مطالب ببذل جهدك في هذا السبيل فحسب! والرسل والأنبياء كانوا يخاطبون بذلك:{إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاَغُ}[1] وكانوا يقولون:{وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ}[2]

وقد يأتي أحدهم إلى بعض الدعاة ويقول له: أنت تعمل أعمالاً جبارة، وتواصل كلال الليل بكلال النهار، لكن النتيجة في النهاية قليلة، فالناس ينفضون من حولك، وأنت ترى وسائل الهدم والتخريب قد استحوذت على الكثير منهم وأصبحت تفسد في ساعة ما يبنيه الداعية في سنة!

متى يبلغ البنيان يوما تمامه ::: إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم؟

وهذا المنطق قد يؤثر على كثير ممن لم يعتادوا على عقبات الطريق وهنا يأتي دور "الصبر " الصبر الجميل

عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ، وهو متوسد بردة في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: يا رسول الله ألا تدعو لنا؟ ألا تستنصر لنا؟

فقعد ﷺ، وهو محمرٌّ وجهه، وقال: **«لقد كان من قبلكم يمشط بمشاط من حديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق اثنين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله، والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون!»**[3]

فالعجلة في قطف ثمار الدعوة ونتائجها لا تتناسب مع الصبر الذي يجب أن يتحلى به الداعية

قد يكون الداعية في موقع من المواقع (بلد، مدرسة، مؤسسة،) يجاهد في رد المنكرات ونشر الدعوة، ويحدث على يديه خيرٌ كثيرٌ، لكنه لا يحس به لأنه يجيء بصورة تدريجية كما لا يحس الأب بنمو طفله الذي يراه صباح مساء! لأنه يكبر شيئا فشيئا!

وكم من داعية تخلى عن موقع من المواقع ظاناً أنه ليس له أثر، فلما تخلى بان فقده وظهرت مكانته، فكان كما قيل:

(١) الشورى: ٤٨.
(٢) يس: ١٧.
(٣) رواه البخاري ٣٨٥٢، وأبو داود ٢٦٤٩، ورواه النسائي مختصرا ٥٣٢٠.

سيذكرني قومي إذا جد جدهم ::: وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

وكان كالكسعي[1]، الذي يصنع السهام ويرمي بها في الليل، ويظن أنها لم تصب ما أراد فكسر القوس، فلما أصبح رأى أنها قد أصابت فندم على كسرها وصار يضرب به المثل في الندم، حتى قال الفرزدق حين طلق زوجته:

ندمت ندامة الكسعي لما ::: غدت مني مطلقة نوار[2]!

فعلى الداعية ألا يستعجل النتائج والثمرات، بل يسعى ويعتمد على الله تعالى، ويدرك أنه بمنطق التجربة المقطوع بها من الناحية التاريخية، ومن الناحية الواقعية، إن أي جهد صحيح يبذل في الأمة يكون له ثمرة، إذ لم يقع في هذه الأمة أن أحداً دعا فلم يستجب له، أو نصح فلم ينتصح بأمره ونهيه أحد، أو عالماً جلس للتعليم فلم يقعد إليه أحد، إلا أن يؤتى من قبل نفسه، بل كل داعٍ يجد من يستجيب له، إذ لم تصل الأمور إلى ما أخبر به النبي ﷺ، من الشح المطاع والهوى المتبع، والدنيا المؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، لم يحدث هذا على مستوى الأمة كلها قط، قد يقع في فرد أو أفراد أو جهة، لكن الأمة فيها خير كثير، ولا يزال عند الناس استجابة وقبول للدعوة، وإصغاء لصوت الناصح، إذا تكلم بعلم وحكمة

بل إننا نجد في الأمم الكافرة اليوم في أمريكا وأوروبا وغيرها أن من يحملون لواء الدعوة إلى الله يجدون من يستجيب لهم من الكفار، وفي مراكز كثيرة كانوا يذكرون لنا إحصائيات الذين يسلمون أسبوعيا فكانت بالعشرات من الرجال والنساء

وهذه الحقيقة التاريخية الواقعية، التي تثبت أن كل جهد له ثمرة هي أيضا حقيقة شرعية: **{فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَه كَاتِبُونَ}**[3] وقال: **{لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ}**[4]

«من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيء»[5]

(١) هو محارب بن حفصة بن قيس عيلان من عدنان جد جاهلي. انظر الأعلام للزركلي ٥ / ٢٨١.
(٢) انظر القصة في الفاخر ٩٠، ٩١، الزاهر ٢ / ١٩٥، ١٩٦، واللسان: مادة كسع.
(٣) الأنبياء: ٩٤.
(٤) الأحزاب: ٢٤.
(٥) رواه مسلم ٢٦٧٤، والترمذي ٢٦٧٦، وأبو داود ٤٦٠٩، جميعهم من حديث أبي هريرة.

«من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده إلى يوم القيامة»[1]

فكل عمل لـه جزاء، وكل داعٍ لـه أتباع

ثالثا: التواضع:

وهو معرفة المرء قدر نفسه، وتجنب الكبر الذي هو بطر الحقّ وغمط الناس كما قال ﷺ، فيما رواه مسلم وغيره[2]

والتواضع في الأصل إنما هو للكبير الذي يخشى عليه أن يكبر في عين نفسه، فيقال لـه:

تواضـــع تكـــن كـــالنجم لاح لنـــاظر ::: علـــى صـــفحات المـــاء وهـــو رفيـــع

أما الإنسان العادي فلا يقال لـه: تواضع، وإنما يقال لـه: اعرف قدر نفسك، ولا تضعها في غير موضعها!

روى الخطابي في العزلة أن الإمام الفذ عبد الله بن المبارك، قدم خراسان فقصد رجلاً مشهورا بالزهد والورع، فلما دخل عليه لم يلتفت الرجل إليه ولم يأبه به، فخرج من عنده عبد الله بن المبارك، فقال لـه بعض من عنده: أتدري من هذا؟ قال: لا قال: هذا أمير المؤمنين في الحديث هذا هذا عبد الله بن المبارك فبهت الرجل وخرج إلى عبد الله بن المبارك مسرعا يعتذر إليه ويتنصل مما حدث وقال: يا أبا عبد الرحمن اعذرني وعظني!

قال ابن المبارك: نعم إذا خرجت من منزلك فلا يقع بصرك على أحد إلا رأيت أنه خير منك!

وذلك أنه رآه معجبا بنفسه، ثم سأل عنه ابن المبارك فإذا هو حائك [3]!!

لقد لمح الإمام المربي أن في هذا المتزهد نوعا من الكبرياء والغطرسة والاستعلاء على الناس وهو داء يسرع إلى المتزهدين أحيانا فزوده بهذه النصيحة التي تلائم حاله

وكم نجد من بعض الصالحين، وربما الدعاة أحيانا، بل ومن صغار الطلبة من يسيؤون الأدب مع شيوخهم وعلمائهم وأساتذتهم وإنه لأمر يحز في النفس ويؤلمها!

(١) رواه مسلم ١٠١٧، والنسائي ٢٥٥٤، كلاهما من حديث جرير بن عبد الله البجلي.
(٢) رواه مسلم ٩١، والترمذي ١٩٩٩، وأبو داود ٤٠٩٢.
(٣) العزلة /٢٢٠.

لا حرج أن تختلف مع عالم أو داعية في رأي أو اجتهاد متى كنت أهلا لذلك لكن الحرج كل الحرج أن يتحول هذا الاختلاف إلى معول هدم لمكانة هذا العالم، والحط من قدره، والإزراء عليه، وسوء الأدب معه

وإن جاز أن يقع هذا من الدهماء من العامة، أومن أهل البدعة والضلالة فإنه لا يجوز بحال أن يقع من أهل السنة ومن طلاب علم الشريعة:

قد رشحوك لأمر لو فطنت له ::: فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

إن علماء أهل السنة والجماعة خاصة مطالبون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاحتساب على علية القوم وإذا خذلهم أقرب الناس إليهم فلا ينتظر منهم ذلك، فواحدهم كفارس شجاع ما خلفه إلا نساء!

ولو أن قومي أنطقتني رماحهم ::: نطقت ولكن الرماح أجرت

ولو أن أهل السنة حموا أعراض علمائهم، وعرفوا لهم قدرهم، والتفوا حولهم لأمكن لهم أن يقوموا بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الوجه الصحيح، لكن لما خذل العالم من وراءه لم يستطع أن يقول شيئا

وكم هو مؤسف أن بعض أهل البدع على النقيض من ذلك، بل تصل الحال بهم إلى أن يمنحوا شيوخهم ومواليهم وسادتهم نوعا من القداسة، ويسيرون خلفهم بشكل مرفوض هو في الحقيقة نوع من العبودية وذوبان التابع في المتبوع

وهذا ديدن الفرق الباطنية عبر العصور حيث تربى أفرادها على منح قدر من "العصمة" لزعمائها وأئمتها

وحتى المعتزلة الذين يتعاطون بضاعة " العقل "، ولا يكاد يوجد عندهم للعواطف مكان يقول أحد شعرائهم في شيخهم واصل بن عطاء[1]:

له خلف بحر الصين في كل بلدة ::: إلى سوسة الأقصى وخلف البرابر
رجال دعاة لا يفل عزيمهم ::: تهكم جبارولا كيد ماكر
إذا قال مروا في الشتاء تسارعوا ::: وإن جاء حر لم يخف شهر ناجر

(١) قال الذهبي في الميزان (٤ / ٣٢٩) واصل بن عطاء البصري الغزَّال المتكلم البليغ المتشدق الذي كان يلثغ في الراء.. قلت - الذهبي - كان من أجلاد المعتزلة وكان يتوقف في عدالة أهل الجمل ويقول إحدى الطائفتين فسقت لأبيعنها فلو شهد عندي عائشة وعلي وطلحة على باقة بقل لم أحكم بشهادتهم.

هـم أهـل ديـن الله فـي كـل بلـدة ::: وأربـاب فتياهـا وعلـم التشـاجر

وأهل السنة أولى بأن يقدروا ويوقروا علماءهم ولا خير في أمة لا يوقر صغيرها كبيرها، ولا يرحم كبيرها صغيرها

ومن التواضع، بل من معرفة قدر النفس: ألا ينظر الشاب المبتدئ إلى نفسه على أنه ند لهذا العالم أو ذاك، ويقول: هم رجال ونحن رجال!!

والحال أن الرجولة تختلف فإن صفة الرجولة في القرآن الكريم سيقت مساق المدح في مواضع عدة:**{فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا}**[1] **{فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ له فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ}**[2] وقد يعبر بالرجولة عن الفحولة والذكورية فحسب، في مواضع أخرى:**{وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ}**[3] فالرجال ليسوا سواء، وأين الثرى من الثريا؟!

ولربما رأيت طويلب علم لا يحفظ من القرآن إلا اليسير، ولا يكاد يحفظ حديثا من البخاري أو مسلم بحروفه، فضلا عن سنده ومعناه ومع هذا قد يقف أمام جهابذة العلماء وكأنه أبو حنيفة أو الشافعي! وهجيراه أن يقول: أرى، وأنا، وقلت، وعندي!

يقولـون هـذا عنـدنا غيـر جـائز ::: ومـن أنـتم حتـى يكـون لكـم عنـد؟!

ومن التواضع: أن يتواضع المرء مع أقرانه، وكثيرا ما تثور بين الأقران والأنداد روح المنافسة والتحاسد، وربما استعلى الإنسان على قرينه، وربما فرح بالنيل منه، والحط من قدره وشأنه، وعيبه بما ليس فيه، أو تضخيم ما فيه، وقد يظهر ذلك بمظهر النصيحة والتقويم وإبداء الملاحظات، ولو سمى الأمور بأسمائها الحقيقية لقال: الغيرة

والعجب أن يغار الداعية من اجتماع ألف أو ألفين في مجلس علم أو دعوة لكنه لا ينفعل لو سمع أن حفلا غنائيا أو مباراة رياضية حضرها عشرون أو ثلاثون ألفا، وهذا والله من البؤس، حتى لو كنت لا ترضى من أخيك بعض الأمر، يكفيك أنه يدعو إلى الله، ويعلم الناس الدين، وهو على الجادة إجمالا:

(١) التوبة: ١٠٨.
(٢) النور: ٣٦، ٣٧.
(٣) الجن: ٦.

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها؟ ::: كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

وقد يكون الحق معه في بعض ما انتقدته عليه

ومن التواضع: التواضع مع من هو دونك، فإذا وجدت أحدا أصغر منك سنا، أو أقل منك قدرا فلا تحقره، فقد يكون أسلم منك قلبا، أو أقل منك ذنبا، أو أعظم منك إلى الله قربا

حتى لو رأيت إنسانا فاسقا وأنت يظهر عليك الصلاح فلا تستكبر عليه، واحمد الله على أن نجاك مما ابتلاه به، وتذكر أنه ربما يكون في عملك الصالح رياء أو عجب يحبطه، وقد يكون عند هذا المذنب من الندم والانكسار والخوف من خطيئته ما يكون سببا في غفران ذنبه

عن جندب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ حدث: **«أن رجلا قال: والله لا يغفر الله لفلان، وأن الله تعالى قال: من ذا الذي يتألى عليَّ أن لا أغفر لفلان؟ فإني غفرت لفلان وأحبطت عملك»** (١)

فلا تستكبر على أحد، وحتى حين ترى الفاسق لا تستعل عليه، أو تعامله بأسلوب المتسلط المتكبر

ولو شعر الناصح الداعية أنه قد يكون لهذا الفاسق طاعات ليست عنده، وأن عنده هو عيوباً قد لا تكون عند صاحبه لعامله برفق، وتلطف معه في الدعوة بما يرجى أن يكون سببا في القبول والذكرى

ومن التواضع: ألا يعظم في عينك عملك، إن عملت خيراً، أو تقربت إلى الله تعالى بطاعة، فإن العمل قد لا يقبل، و**{إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ}**(٢)، ولهذا قال بعض السلف: لو أعلم أن الله قبل مني تسبيحة لتمنيت أن أموت الآن!

ومن ذلك التواضع عندما تسمع نصيحة، فإن الشيطان يدعوك إلى ردها، وسوء الظن بالناصح، لأن معنى النصيحة أن أخاك يقول لك: إن فيك من العيوب كيت وكيت:

وكم مرة أتبعتكم بنصيحتي ::: وقد يستفيد البغضة المتنصح!

أما من عصمه الله تعالى فإنه إذا وجد من ينصحه ويدله على عيوبه قهر نفسه،

(١) رواه مسلم: ٢٦٢١.
(٢) سورة المائدة: ٢٧.

وقبل منه، ودعا لـه وشكره

ولهذا قال ﷺ، في تعريف الكبر: **«الكبر بطر الحق وغمط الناس»** [١]

يعني رد الحق، وبخس الناس أشياءهم فالمستكبر صاحب نفسية متعاظمة لا يكاد يمدح أحدا أو يذكره بخير، وإن احتاج إلى ذلك شفعه بذكر بعض عيوبه

أما إن سمع من يذكره ببعض عيوبه فهيهات هيهات أن ينصاع أو يلين، وما ذاك إلا لمركب النقص في نفسه، ولهذا كان من كمال الإنسان أن يقبل النقد والملاحظة بدون حساسية أو انزعاج أو شعور بالخجل والضعف، وها هو أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يحمل الراية، ويرفع الشعار: رحم الله امرأ أهدى إلينا عيوبنا [٢]

العدل مع العدو والصديق:

فالكثير من الناس إذا ذكر لـه صديقه أثنى عليه ولو كان يعلم أنه لا يستحق ذلك الثناء، وإذا ذكر لـه خصمه ذمّه ولو كان يعلم أنه خلاف ما يقول

فهل يستطيع الداعية أن يذكر العيوب الموجودة في أقرب الناس إليه ممن يكون مثله في المنهج والطريقة؟! أو يكون شريكا لـه في عمل ما؟!

وهل يستطيع أن يثني بصدق على إنسان يختلف معه في بعض الأمور؟

إن كان يستطيع ذلك فقد حقق العدل في هذا الجانب، ولكن أكثر الناس يجورون على خصومهم فيذمونهم بما ليس فيهم، ويجورون أيضا على أصدقائهم فيمدحونهم بما ليس فيهم وهذا وإن كان مظهره مظهر المحبة والثناء إلا أن حقيقته الجور والذم، فمن أثنى عليك بما ليس فيك فقد ذمّك، لأن الناس يتطلبون هذه الخصلة فيك فلا يجدونها فيذمونك على فقدها، والله تعالى قد أمرنا بالعدل حتى مع الأعداء فقال:**{وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى}**[٣]

ومن المحزن أننا وإن سلّمنا بذلك نظريا، إلا أننا من الناحية العملية سرعان ما ننسى هذا الدرس، فحين نقف على ما نعده نحن خطأ من فلان نسقطه من الحساب، ولا

(١) صحيح مسلم بشرح النووي:١٣١.
(٢) سلمان بن فهد العودة/من أخلاق الداعية: ٢٨.
(٣) المائدة: ٨.

نعبأ به، ولا نلتفت إليه، وكثيرا ما تنسينا محاسن الشخص الكثيرة عيوبه القليلة، أو تنسينا عيوبه الكثيرة محاسنه القليلة

لا بل الأمر أدهى وأمر!

ولعل الحقيقة أنه كثيرا ما تنسينا العيوب القليلة المحاسن الكثيرة وننسى القاعدة الشرعية " إذا كان الماء قلتين لم يحمل الخبث!! "[1]

ينبغي للداعية أن يكون قدوة لغيره بأن يتجنب المكروهات وفضول المباحات وما لا يحتاج إليه، ويترفع عن الدنيا والتنافس فيها حتى يكسب ثقة الناس، والأمر كما قال الشافعي:

ومن يذق الدنيا فإني طعمتها ::: وسيق إلينا عذبها وعذابها
فما هي إلا ضيعة مستحيلة ::: عليها كلاب هممن اجتذابها
فإن تجتنبها كنت سلما لأهلها ::: وإن تجتذبها نازعتك كلابها

فمن المهم للداعية أن يجعل الدنيا تحت قدميه يستخدمها ولا يخدمها حتى يعلم الناس أنه ليس صاحب دنيا ولا طالب مكانة

ومن مجالات القدوة: أن تجنب الداعية التناقض بين القول والعمل كما قال نبي الله شعيب:**{وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}**[2]

ولذلك كان علماء السوء يدعون الناس إلى الإسلام بأقوالهم ويحذرون منه بأعمالهم، فاحرص أخي الداعية أن تكون قدوة في قولك وعملك

وها هنا أمر ينبغي التنبه له وهو: أن الكثير من الناس يظن أن الداعية لا يأمر إلا بالمعروف الذي يفعله ولا ينهى إلا عن المنكر الذي يجتنبه وهذا غلط بل الصحيح الذي تدل عليه نصوص الكتاب والسنة أن الإنسان يجب عليه أن يأمر بالمعروف ولو كان مقصرا فيه وأن ينهى عن المنكر ولو كان واقعا فيه حتى قال بعض حذاق أهل العلم: حق على من يتعاطون الكؤوس أن ينهى بعضهم بعضا

(١) نص حديث رواه أحمد وأهل السنن وصححه الطحاوي وابن خزيمة وابن حبان والحاكم والذهبي والنووي وابن حجر. انظر إرواء الغليل (١ / ٦٠).
(٢) هود: ٨٨.

فالوقوع في المنكر لا يبرر لي الوقوع في خطأ آخر وهو أن لا أنهى عن المنكر، والشرط الوحيد أن يكون أمري بالمعروف ونهيي عن المنكر بصدق وليس على سبيل الخداع والنفاق والتضليل وأن أظهر للناس أني داعية، وأنا لست كذلك فلو كان الوالد مثلا مبتلى بشرب الدخان ورأى ولده يدخن فهل يسكت عنه بحجة أنه واقع في المنكر؟

كلا بل عليه أن ينهاه ويقول: إني سلكت هذا الطريق ويصعب علي الإقلاع وأنت ما زلت في البداية وهكذا سائر المعاصي

وقل مثل ذلك في مسؤول يرى من تحته يقع في معصية هو واقع فيها

ولو لم يعظ في الناس من هو مذنب ::: فمن يعظ العاصين بعد محمد

وتقتضي القدوة: ألا يقابل الداعية السيئة بالسيئة بل يعفو ويصفح ويقابل الإساءة بالإحسان كما كان ﷺ، يعفو عمن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويصل من قطعه، وهذه أخلاق الأنبياء

* * * * *

المطلب الخامس:
أنواع المنكرين للجدال مع أهل الكتاب

هناك إعراضا من بعض المنتسبين للعلم عن دعوة ومواجهة أهل الكتاب ودعا إلى ذلك جملة أسباب منها:

١ - الركون إلى انتشار الإسلام

٢ - أن الأصل في ذلك أنه من باب فروض الكفاية

٣ - الاشتغال بالفروع الفقهية والتعصبات المذهبية وحصر جانب الجدال في باب المذاهب الفقهية الأربعة أو بين المعتزلة والأشاعرة أو أهل الكلام والفلاسفة

وقد مرت فترات بالأمة ظهر فيها اشتغال مجرد بالعلم من قبل الطلبة وأهل العلم وهو اشتغال على مستوى الكتب والدراسة دون معرفة الواقع الذي يحتاج في كثير من مسائله إلى تفصيل وقول بعلم وعدل

ولئن كانت تلك جملة من الأسباب التي منعت طوائف من أمة الإسلام عن الاشتغال بالرد على أهل الكتاب أو الحوار معهم فإنَّ هناك طوائف رأتْ أنَّ الباب يجب أنْ يغلق والنافذة يجب أن تسد فأنكرت الاشتغال بالرد عليهم من باب الشرع الذي دعاهم للقيام بالجدال والدعوة للإسلام!

فما هي أهم شبه هؤلاء وما هي أهم مرتكزاتهم؟

الشبهة الأولى: منع الجدال مع أهل الكتاب بناءً على ظهور دلائل النبوة

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: " ومما يعجب منه أن بعض المنكرين لمجادلة الكفار بناءً على ظهور دلائل النبوة نجده هو ومن يعظمه من شيوخه الذين يعتمد في أصول النظر على نظرهم ومناظرتهم ويزعمون أنهم قرروا دلائل النبوة قد أوردوا من الشبهات والشكوك والمطاعن على دلائل النبوة ما يبلغ نحو ثمانين سؤالا وأجابوا عنه بأجوبة لا تصلح أن تكون جوابا في المسائل الظنية بل هي إلى تقرير شبه الطاعنين أقرب منها إلى تقرير أصول الدين"[١]

(١) الجواب الصحيح (١ / ٢٤٣).

الشبهة الثانية: منع الجدال مع أهل الكتاب بناءً على نسخ آيات الجدال معهم بآيات السيف وفرضية الجهاد

ردَّ شيخ الإسلام على أصحاب هذا الاتجاه من تسعة أوجه حررها في كتابه العظيم "الجواب الصحيح" يقول رحمه الله تعالى: "فإنَّ من الناس من يقول: آيات المجادلة والمحاجة للكفار منسوخات بآية السيف لاعتقاده أن الأمر بالقتال المشروع ينافي المجادلة المشروعة وهذا غلط فإنَّ النسخ إنما يكون إذا كان الحكم الناسخ مناقضا للحكم المنسوخ كمناقضة الأمر باستقبال المسجد الحرام في الصلاة للأمر باستقبال بيت المقدس بالشام"

ثم قال رحمه الله تعالى: " وقوله:**{وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ}**[1] فهذا لا يناقض الأمر بجهاد من أمر بجهاده منهم ولكن الأمر بالقتال يناقض النهي عنه والاقتصار على المجادلة فأما مع إمكان الجمع بين الجدال المأمور به والقتال المأمور به فلا منافاة بينهما وإذا لم يتنافيا بل أمكن الجمع لم يجز الحكم بالنسخ ومعلومٌ أن كلا منهما ينفع حيث لا ينفع الآخر وأن استعمالهما جميعا أبلغ في إظهار الهدى ودين الحق ومما يبين ذلك وجوه:"[2]

ثم عدَّدَ رحمه الله تعالى تسعة أوجه للقول بذلك وكلامه نفيس للغاية

* * * * *

(١) سورة العنكبوت: ٢٩، ٤٦.
(٢) الفتاوى/ج ١/ ٢١٨ - ٢١٩).